الفاجعة

لا عزاء، ومن اين للقلوب الكليمة بعد فقد الوحيد عزاء، فاجعة الفواجعة، ولوعة بعد لوعة، وصدمات متتالية تمحق القلب وتدمي الفؤاد وتستذرف الدمع من العيون سحًّا دراكاً

كنت بالامس انعي عزيزاً واليوم انعي عزيزاً، فوالمني كأنما اصبح قلبي على رثاء الاعزاء موقوفاً. اخي ثم ابن اخي، جزءان من نفسي وركنان من اركان سعادتي صهر لفقدهما قلبي بنيران الجزع الشديد والحزن الصادق وتذوقتُ اقسى ما في الحياة من هم وكمد ويأس وقنوط. شباب نضر ثم طفولة بسّامة، آمال حية قضى عليها الموت وخلّف لها في القلوب جراحاً حية

ودعنا الامس بعد ما اودع في نفوسنا حسرة، ورجونا ان يكون غدهُ اقل همًّا والماً فاذا الاقدار تضمر لنا غدراً، واذا الغد يحمل في طياتهِ لهيباً مستطيراً، ويلهبنا في وحيد ابويهِ وقرة عين اهله جميعاً. لهفي على العصفور المغرد والبليل الصدّاح، اطرب الدنيا حيناً بتغريدهِ واحيا القلوب المحبة بشدوهِ وغنائهِ، عاجلهُ الموت الغشوم غير مشفق على اكباد تتصدع وافئدة تتفطر وآمال تتهدم صروحها

اي ربي ومنك الرحمة اهكذا تعدو والاقدار على بيت وادع مطمئن مبتهج بنصيبهِ في الحياة فتبدل نعيمهُ بؤساً وسعادتهُ شقاء؟

اهكذا يقضى على الآمال في حدة توقدها وعلى المنى قبل ادراك ثمارها وتفتر القلوب الشابة الفتية نار محرقة و يدرك النفوس الطامحة يأس قاتل؟ . اهكذا تمتد يد المرض الاثيمة الى هيكل الطفولة المقدس فتعبث بحرمته رغم كل صيانة وعناية ورعاية

شهدت الشيخ في مرضهِ، وشهدت الشاب في مرضهِ، وشهدت الطفل في مرضهِ، فرثيت لشقوتهم جميعاً انما هالني استسلام الطفل لعولة المرض يعاني آلامهُ وهو لا يدرك مبلغ ما يعاني. هالني ان ارى الملاك يُعذَّب، ولقد كنت احسب الملائكة الاطهار في مأمن من العذاب، وان ارى الزهرة البارزة من اكمامها تمطر بشذاها الارجاء تعبث بها الريح العاصفة فتنثر اوراقها البهيجة الندية

هالني واحزنني ان ارى صغيرنا المحبوب يقاسي اللوعة و يتجرع الكأس المريرة اياماً وليالي حتى اخرجهُ الضعف عن احتمال الم الداء ومضض الدواء من الاستسلام الى الشكوى والانين وصيحات التوسل «خلصوني من العذاب» وحولهُ قلوب محبة واجدة

رحيمة لا تستطيع دفع الاذى عنهُ ولا احتمال الاوجاع بدلاً منهُ ، وزادني حسرة انهُ وحيد تظلمت اليهِ العيون وعقدت عليهِ الآمال ، وافى النفس فيهِ ام رؤوم واب بار يقدسانهِ و يكرسان حياتهما لهُ

لشد ما يثير الحزن في النفس منظر الام الى جانب ابنها في سرير المرض والهة جازعة ، تحتضنهُ وتقبلهُ كأنما تحاول ان تهبهُ من انفاسها حياة او تحمل عنهُ من انفاسهِ آلاماً ، ترتعد لحركتهِ وترتاع فزائصها لسكونهِ ، تناديهِ اذا صمت وتخشى عليهِ التعب اذا تحدث ، وتسهر على راحتهِ ، بعين مقروحة لا تحول عن النظر اليهِ الاَّ لتخفي عبرات الوجد والاشفاق ، او لتنظر الى السماء ضارعة متوسلة . وقلب خفاق بين اليأس والرجاء ، ونفس قلقة مضطربة ، وجسم منهوك مضنى

لكن الغصن الرطب لا يقوى على احتمال العواصف طويلاً ، كذلك ضعف عزيزتنا الصغير عن مقاومة هجمات المرض العنيفة وفي لحظة شعر بقشعريرة تسري في جسمهِ اهتزت لها قلوبنا الهالعة ، وعبثاً حاولنا دفعها بكل الوسائل . وكأنما تكشف للملائكة الابرار استار الغيب فكرر الوحيد المحبوب مراراً سأموت يا ماما .... والقى بنفسهِ على صدر امهِ ، وعانقها عناقاً طويلاً مردداً احبك يا ماما ... ثم فتح عينيهِ البراقتين المتلألئتين لم تنقض يد الموت من جمالها الساحر ، واجال الطرف فيما حولهُ ، واشبع روحهُ بنظرة الوداع الاخيرة لمن تكلتهُ ، واغمض جفنيهِ واسلم الروح

وقع الخبر في نفس الأب وقع الصاعقة وأحس كأن العالم اصبح فراغاً خالياً من كل شيء ، فتضعضع امام هول المصاب وخانتهُ رجولتهُ ، واسلم نفسهُ لثائرة الحزن المبرح

واصاب الأم شبه ذهول منذ تمثل لها ملاك الموت فانحنت على وحيدها تضمهُ اليها لتقيهُ شر ذاك الشبح الاسود لكن روعة الفناء في صفحة الوجه النقي البسام اوحت اليها ان غائلة الموت لا تدفع . فانخلع قلبها وغاب صوابها وصاحت واولداه . واوحيداه . وارسلت مع الروح الصاعدة الى السماء صيحات الثكل واللوعة ، تجرح قلب الليل وتشق عنان السماء . وباتت كالملهوف لا يقر لهُ قرار . فحيناً تصرخ وتولول وحيناً تندب وتنوح ثم ترتمي الى جانب الجثة الهامدة وتجس النبض وتصغي لدقات القلب علهُ قد عاد الى الحياة . فتتحقق لها خيبة الرجاء فتخر مغشياً عليها ، وسرعان ما تنبهها النار الذاكية بين جوانحها فتعود الى الاضطراب والانتحال والندب والعويل ، وتشكو الى الاقدار ظلم الاقدار وتردد مع انات القلب المكلوم المعنى ، ماذا جنيت يا ربي لتجزيني هذا الجزاء

القاسي . انا المحبة للناس التي لم احمل لاحد في فؤادي ضغناً ولا موجدة ولا اودعت قلبي حفيظة لمسيء ولا امسكت يدي عن تقديم خير استطيعهُ ، ايكون هذا نصيبي ؟ كم ناديتك ياذا الرحمة والكرم احفظ لي ملاك حياتي ، والآن اسائلك ياذا البطش والجبروت ، أيرضيك كسر القلوب وتحطيم الآمال وانحلال العقد وتشتيت الشمل ؟

ثم ضعفت الام المفجوعة واختنق صوتها وخرت منهوكة مهدودة لا تكاد تستطيع حراكاً لكنها اهاجها منظر ضوء النهار يتسلل الى غرفة الاحزان و ينتشر على فراش الموت ، واشتد مع ازديادهِ ظلام نفسها اليائسة ، فكشفت عن الوجه الذابل لترى مطلع النهار عليهِ لآخر مرة ، وقبلتهُ بكل ما في قلبها الملتهب من حرقة وحرارة

وحانت ساعة الفراق الاخير ، فرمى على القلوب الكليمة من هول تلك الساعة ، اذ يبلغ الحزن اعمق اعماق النفس فتضيق بهِ وتحاول ان تجد لهُ مخرجاً ، وتشعر في ثورانهِ قوة محال ان تدرك الالفاظ مداها . حانت الساعة الاخيرة فتطاير الشرر من لهيب القلوب ، وضجت الاصوات ضجة اليأس ، وتعالت صيحات الحزن الشديد ، وتكاثر البكاء والنحيب

وكأنما اصاب الثكلى ذهول فغاض لونها وتحجرت عيناها ، وهمت تنتزع الجثة الهامدة من ايدي خاطفيها ، لولا ان اجتذبت اجتذاباً وامسكت قهراً ، فتراجعت مهدودة خائرة وقبض اليأس المرير على قلبها الموجع بقبضة من حديد ، وفاضت عيناها بعد الجمود بوابل من الدمع مدرار . وعاد الاب بعد ان شيع وحيدهُ الى قبرهِ وتلظى بجمرة الوداع الاخير ، مفعماً قلبهُ بالحزن مثقلاً بالهموم والآلام ، وفي مظهرهِ الرصين وحديثهِ الهادئ ما ينمُّ عن جزع الثاكل و يدوي بصرخة الفؤاد المكلوم

وانقضت ايام المأتم وعاد الناس الى سيرتهم الاولى ، وعدنا نلتمس حياة هادئة تنعم من ثوران حزننا ، فعز علينا ذلك . لقد تنكر لنا وجه الحياة وتغيرت معانيهِ طرًّا ، فلم نعد نجد فيهِ الأوحشة مريعة وذكريات مؤلمة تستثير منا اوجع الغصات واحر العبرات كان الحبيب الراحل في القلب مصدر حياتهِ ونعيمهِ ، فانزل الموت مكان حبيبهِ من قلوبنا حزناً عنيفاً ولوعة محرقة لكنها عزيزة علينا ، وكل ما اختلط بذكراهُ الغالية محبب الينا مستطاب

ومهما آست يد الزمن جراح القلوب وخففت وطأة النائبات فهيهات ان تصل الى ما تملك الفاجعة الاليمة من لوعة لذاعة وذكرى في ثنايا الافئدة خالدة

في ذمة الله يا ابن اخي وفي جند ملائكتهِ الاطهار . وسلام عليك حتى التقابي دار الخلود

مصرية